الثقافة فى عهد طفولتها ونشأتها، وهى لما تزل عاجزة تعترف بعجزها وتتلهف الى المعرفة حيث وجدتها ، فلم تتردد فى الانتفاع بتراث اليونان الى أبعد حد ، فأثرت أيما إثراء بما أخذت عن اليونان من المواضيع والأشكال الأدبية ، ومد الأدب اليونانى أمامها آفاق التفكير الواسعة وآماد المثل العليا وصور الجمال المختلفة ، ووجدت فى تاريخ اليونان وأدبهم وأساطيرهم ومنتجات فنونهم من صور وتماثيل وآثار منادح للكتابة والدرس والنظم ، ومنابع للوحى لا تنضب .

فلا غرو أن طفرت تلك الآداب الغربية التى لم تكد فى عهد النهضة تكون شيئاً مذكوراً ، والتى كانت لغاتها ذاتها ما تزال فى طور التكوين ، فاذا هى بعد قرون ثلاثة أو أربعة تسبق الأدب العربى وهو أعرق منها محتداً وتفوقه اتساع آفاق وتعدد مواضيع ، لأن الأدب العربى الذى لم يكد يستفيد بأدب أمة أخرى ظل فى مكانه جامداً يكرر نفسه ويعيد على نفسه الأبواب عينها التى جال فيها المتقدمون من فخر ورثاء ومدح وهجاء ، حتى اذا كان العصر الحديث اذا هو يقف من الآداب الغربية موقف التلمذ والتلقن .

ان تمكن ملكة البيان من العرب — مما جعلهم لا يدينون الا لنبى يأتيهم بكتاب معجز ، وجعل خلفاءهم يتخذون وزراءهم من أئمة البيان — واعتدادهم بأدبهم واستغراق مجهودهم الفنى فيه وحده ، هذا كله فى مجموعه كان عاملا شامل الأثر بعيده فى تاريخهم وأدبهم ، ولقد كان أثره فيما يتعلق بالتراث اليونانى بليغ الضرر ، فخسر العرب خسارة كبيرة باغفال الأدب اليونانى الحى على توالى العصور ، الشديد الايحاء القوى التأثير ، الذى كان بلا ريب أغنى من أدبهم . ولو لقح به الأدب العربى لاتسعت جوانبه وانصرف عن تلك الأغراض العلمية التى احتبس فيها إلى عوالم الفن الخالص وتغير مجرى تاريخه وأفاد العرب بذلك أضعاف ما أفادتهم دراسة الفلسفة اليونانية .

ونحن اليوم بدراسة الآداب الغربية والأخذ عنها بطريق غير مباشرة عن تلك الثقافة اليونانية ، وندخل فى أدبنا ذلك العنصر اليونانى الذى لابد منه لكل أدب يريد له مكاناً بين الآداب العالية ، واذا وقف شاعرنا المصرى أمام الأهرام فلم ينصرف ذهنه الى بطش الدهر بالجبارين الذين أعلوها ولم يتنبأ لها باللحاق بهم ، بل حيا فيها الفن وعظم قدرة الانسان وقال :

أهرامهم تلك حى الفن متخذاً … من الصخور بروجا فوق كيوان
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى … ما يأخذ النمل من أركان ثهلان

فما ذلك إلا لأننا قد تأثرنا بتلك الروح اليونانية التى تعظم الفن الخالص فى مختلف صوره وتمجد قدرة الانسان فى مصارعتها للفناء ، تلك الروح التى كان أغفلها أجدادنا العرب .

فخرى أبو السعود

إنما يرثها المؤمنون

إخلاف الأمل

للأستاذ أديب عباسى

الحياة كالسفينة : قلعها الأمل ، ودفتها الفكر ، والرابط لأجزائها واللأم لشعثها هو الايمان . والعقل يرسم الخطة، ويبين الاتجاه ، ويدل على الطريق . والأمل شراع الحياة الذى يدفعها فى أوقيانوس هذا العالم المضطرب وفوق لجه المصطخب ، والذى يتلقى القوى من أين جاءته وأنى واجهته ليحيلها فى النهاية قوى للدفع والانتظام فى السير . أما الايمان فهو هذا الذى يشد أضلاعها ويوثق أجزاءها ، فلا يوهنها العاصف الشديد ولا يمزقها ، أياديه . وهو الذى يعدل انحناءها ويقوّم استواءها ، فلا توهيها الصدمة ولا تزعزعها الزحمة . وبالقدر الذى تظفر به الحياة من توازن وائتلاف بين هذه القوى الثلاث يكون الخير والنجاح ، وبالقدر الذى تتنافر وتضطرب يكون الفشل والخيبة . انظر الى المتشائمين الصارخين فى وجه الحياة الدافعين لها فى الصدر، ترهم من أولئك النفر الذين كبرت عقولهم ونضبت آمالهم وتزعزع ايمانهم ، فأمسوا كالقارب قد تخرق قلعه ، وحطمت دفته . يقابلهم المتهورون الذين لا ينزلون للعقل على حكم ، ولا للمنطق على قاعدة : فتراهم يسيرون فى هذه الحياة على غير توجيه يوجهونه ، أو هدى يتوخونه ، فلا يلبثون أن يرتطموا بصخورها الناشزة ، فتتحطم آمالهم وتبخر الحقيقة أمانيهم كما تبخر الشمس أحلام النائم .

هذه هي صلة الأمل والإيمان بالفكر . واذاً فاذا نحن ذكرنا أحدهما بعدئذ فانما نذكره ونحن نضمر ونقدر الفكر . ذلك أن الأمل دون الفكر يضحي تهوراً ورعونة ، والايمان بلا عقل ملهم يمسي عناداً واشتطاطاً .

وماذا نقول بعد هذا الاجمال في دعامتي الحياة هاتين ؟

نقول إن الأمل هو القوة الدافعة الكامنة في صدور الشباب ، وهو النور الذي يبدد ظلام النفوس ويزيل حلكها عند ما تتوالى النكبات وتتعاقب المصائب . هو ذلك المعبود الذي نصب له الرومان تمثالاً يجثون حواليه ويخشعون . وهو الاله الذي هجر رومة عند ما عكفت على المادة تعبدها فسقطت سقوط شمشون في يد الشهوة . وهو الذي وقف في مضيق ترموبيلي يهزأ بالقوى المادية ويفخر بالتضحية الخالدة . هو ذلك الفيض العلوي الذي كان يخوض صفوف المسلمين مردداً : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين ، فكان ملء الصدور في بدر ، وكان ملء الصدور في اليرموق ، وكان ملء الصدور في القادسية . هو الذي يحيل الشيخ الهرم شاباً إذا حل في صدره ، والشاب شيخاً اذا زايله . وإن شيخاً كبرت عدته من الأمل لا تنصفه اذ تحشره في زمرة الشيوخ وان بلغ عتياً . وان شاباً هزل أمله وفتر عمله هو والشيخ الفاني سواء . فالفتوة والشباب ليسا في السنين ، انما هما في القوى الروحية السليمة . والمهزومون في معركة الحياة الهاربون من وجهها هم الدليل . هذا شيخ مرفوع الرأس مسنود الظهر ، قوي الأمل كبير الثقة بالنفس ، يسير بقية الطريق في غير التواء ، فيصل آخر مرحلة من مراحل الجهاد لا هو بالخائر العزيمة ولا بالخالي من الزاد . وذلك شاب (بحسب السنين فقط) خاوي الأمل فاتر الهمة ، يدب كما تدب السلحفاة . . . أعياه نيل الشمس واصطياد النجوم ، فلم يعد يداً الى ما هو في متناول اليد ، وتملكه اليأس ، وبث له من ترقب الخيبة نطاق ، فلم يحفل كثيراً بالجنى القريب ، ففاته كثير من الجواهر واللآلئ التي يمر بها مرّ المجانب

اذاً فمعركة الحياة الصارمة تتطلب منك ياصاح الأمل القوي تسنده العزيمة المسددة ، وتفرض عليك الاندفاع والسعي ، ينير سبيلها الاستبشار والثقة . وفي الوقت الذي يكف المرء فيه عن الحركة والدؤوب يدخل في ثبت الأموات الفانين . إن خير ما تشبه به الحياة هو الدوّامة التي ما تزال تدافع فعل الجاذبية وتقاومه بقوة الاندفاع وسرعة الحركة ، ولكنها إذ تبطئ وتكف عن الحركة تسقط بعد إذ كانت مستوية على قدم قائمة على ساق .

وتفرض عليك معركة الحياة أيضاً أن يكون لك هدف تسعى اليه ، لا هو بالوضيع الذي لا يستثير كل ما في النفس من استعداد ولا يستنفر كل ما فيها من قوة ، ولا هو بالبعيد المنبت الذي تتقطع دونه جميع الأسباب وتفشل جميع الجهود .

ثم ليكن هدفك كالأفق العريض يتجدد على السير ويتسع مع الحياة ويغري على البذل . ولا يهمنك بعدها أنجحت أم فشلت . فالفشل ليس جرماً ، إنما الجرم هي الآمال المحدودة والأهداف الوضيعة . ولا تغبطنّ من هو أحط منك هدفاً وأسعد حالا . فقد تكون أنت بحرمانك ونحو هدفك أعظم منه في نجاحه وحطة هدفه الذي اذا وصل اليه لا يلاقي وراءه إلا ظلام القبر وقيد الفناء وأنت فوق هذا وذاك مكتسب من فشلك الآني منعة ضد مكروب اليأس الذي يقتل النفوس ويعصف بالرجولة .

وأخيراً — الايمان — ماذا تقول فيه ؟

نقول موجزين : إنه صفة العظماء الغالبة ، ومزيتهم التي يمتازون بها عن الأوساط ، ومن هم دون الأوساط . فيوليوس قيصر كان كبير الايمان حينما قطع نهر الروبيكون واستولى على رومة بشراذم جنوده . وقد كان ضعيف الايمان في الوصول الى تاج الملك فذبح . وكولمب كان عظيم الايمان ، لذلك لم يفتّ في عضده كل ماقام في سبيله من صعاب ، ولم يثنه أن يجد نصف العالم الذي كان مفقودا . ونابليون كان له نجم يراه في النهار ويسير بهديه . والمسيح كان كبير الايمان ، فكان يشق المفلوجين ويقيم المقعدين . والنبي العربي كان وطيد الايمان ، فعمل لقومه في حقبة قصيرة من الزمن ما يُعجز أجيالاً ويفنى آجالا .

ومن صفاته أن المؤمن يكون سريع العودة الى ما اختطه لنفسه من طريق ، ورسمه لها من مسير ، بعد أن تحرفه عن ذلك رجات الحياة العنيفة وحوادثها الزاخرة . شأنه شأن الابرة المغنطيسية — مهما بالغت الحياة في هزه ، لا يلبث أن يعود سيرته الأولى ويتجه اتجاهه الأول . ذلك أن ثمة قوة حية مشبوبة فيه تتجاذب وقطب